العلم في يوم العلم

يوم العلم مناسبة وطنية تحييها الجزائر كل سنة احتفاءا بالعلم والعلماء، وتقديرا للجهد الفكري الذي تبذله المؤسسات العلمية والتعليمية لنشر المعرفة، وتوفير وسائل تحصيلها، ودعوة للتفتح على كل أنواع العلوم والمعارف التي تخدم حياة الإنسان وترتقي بوجوده، وتصلح أحوال البشر، وتمكن المجتمع من الأخـــذ بأسباب التقدم ومسايرة ركب التطور.
إن حديثنا عن العلم في يوم العلم له أكثر من دلالة فهو:

الدكتور: عبد القادر فضيل

من دلالات الاحتفاء بالعلم

1- تكريم معنوي لعلماء الجزائر القدامى والمحدثين الذين اسهموا بجهودهم في نشر الوعي الفكري والديني والأخلاقي، وترشيد حياة المجتمع، ورسموا بسلوكهم ومواقفهم وآرائهم النهج الذي يجب أن تسير على هديه الأجيال لمواصلة مسيرة الخلف، في مجال بناء الحياة الوطنية وترقية الاهتمام بالمعرفة، وتكريم كذلك لكل العلماء الذين خدموا النهضة العربية والإسلامية عموما، وقدموا إسهاماتهم العلمية إثراء للحضارة الإنسانية.

2- وهو في الوقت نفسه إشادة بقيمة العلم وتمجيد لها، وتبصير أبنائنا بأهمية هذه القيمة التي يجب أن يدرجوها في صميم حياتهم، لأنها أساس رقي المجتمع، وأداة كينونة الإنسان ومن ثم فالاحتفاء بهذه المناسبة هو احتفاء بالإنسان وبالعقل الذي هو ميزة الإنسان وأداة عمله باعتباره القوة الروحية التي بها يكون التفكير والنظر والاستدلال، وهي العناصر المنتجة للعلم الذي هو الإدراك الجازم الذي به يستوعب الإنسان الحقائق ويبرهن عليها.

إن تخصيص يوم للعلم، وجعله مهرجانا وطنيا هو تعبير دال على مكانة العلم في حياتنا، ورمز مترجم لاهتمامات المجتمع بكل نشاط علمي يتوخى التغيير الإيجابي لواقع الأمة وتحقيق، الازدهار الفكري لأن العلم أداة من أدوات التغيير نحو الأفضل، ووسيلة من وسائل النهوض بالأمة.

وإذا كان يوم العلم هذا يصادف ذكرى وفاة رائد النهضة الجزائرية الإمام عبد الحميد بن باديس الذي عاش الفترة من: (1889/12/05 إلى 1940/04/16) فهذا لا يعني حصر الاحتفال بالعلم في شخصية ابن باديس الذي هو واحد من شخصيات الجزائر في العصر الحديث[1] ومن شخصيات العالم الإسلامي والعربي[2] التي أثرت في الحياة الثقافية، والحركة الإصلاحية، وكان لها أثر بين في أحداث الصحوة الفكرية والدينية التي أيقظت المجتمعات العربية والإسلامية بعد مخلفات عصور الانحطاط ودفعتها إلى التحرك الواعي الذي يمكنها من إدارك واقعها واستيعاب مشكلات هذا الواقع، ومن ثم التوجه نحو العمل الهادف إلى تغيير هذا الواقع وفق ما تتطلع إليه الأمة في الاتجاه الذي يضمن لها ارتقاء وعيها وازدهار حياتها.

ومع ذلك فإننا حينما نثير قضايا العلم والمعرفة ونربطها بواقعنا سنتخذ من أفكار ابن باديس مثالا للمفكر المستنير والعالم المسلم الذي ظلت تؤرقه أوضاع المسلمين عامة وأوضاع الجزائريين خاصة، فجعل همه الأكبر هو إذكاء وعي الناس بحقيقة ما يعوق مجتمعهم عن التحرر والنهوض، فراح يناضل بفكره وقلمه ومشاريعه التربوية في مجال نشر العلم وتصحيح المفاهيم وتعبئة الجماهير.

لقد ظل ينشر العلم ويربي الآجيال طوال حياته ويحث الناس على الرجوع إلى أصول العقيدة الصحيحة والانكباب على تحصيل العلم الذي يحصن المسلم من كل ما هو إنحراف عن الصراط السوي كما ظل يطرح المفاهيم الصحيحة للعلم والدين والأخلاق، تلك المفاهيم التي يجب أن يتجه إليها اهتمام المفكرين والعلماء، وتتبناها المؤسسات التعليمية، فالعلم في نظر علماء الإسلام وهو واحد منهم هو المعرفة الدقيقة والشاملة (وليست المعرفة الخاصة بالمجالات الشرعية فحسب) التي لا تعالج قضايا الإنسان كلها، فالمعرفة الحقة التي يحث عليها الإسلام هي التي تكسب الإنسان القوة على الفعل والقدرة على التغيير وتمكنه من فهم واقعه.

ومن أجل ذلك وجه نضاله الفكري وجهاده العلمي لخدمة الإسلام والمسلمين، والتنبيه إلى أسباب تأخر الأمه التي حصرها في عاملين أساسيين:

1 – جمود العلماء وانعزالهم عن مجتمعهم.

2 – جهل المسؤولين واستبدادهم.

يقول في هذا الصدد: فكل بلاء حل بالمسلمين إنما جاءهم من مصدرين هما: العلماء بجمودهم وانعزالهم عن المجتمع والسياسة، والحكام بجهلهم واستبدادهم وخضوعهم لشهوة السلطة [3] لذلك رأى أن إصلاح التعليم أساس الإصلاح، وبما أن العلماء هم الذين يوكل إليهم تعليم الناس وتثقيفهم وهدايتهم فإنهم لن يستطيعوا القيام بهذه الرسالة الإنسانية النبيلة المنوطة بهم إلا إذا كانوا على وعي تام بها، ولم يكونوا من أهـل التحجر والجمود في تفكيرهم وفي أعمالهم وفي نظرتهم إلى الدين وارتباطه بالحياة، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم، وإصلاح العلماء موقوف على إصلاح التعليم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته.

وفي معالجة القضايا العلمية نبه إلى الاهتمام بالأصول التي نتجت عنها الفروع لأن النظر في الفروع المقطوعة عن الأصول لا يسمى علما، ولا يهدي المتعلمين إلى الاستدلال الصحيح في فهم العلوم [4]، ثم إن التعليم عنده، لا يحصر مضمونه في المسائل الدينية، بل ينبغي أن يشمل كل ما يتصل بحياة الإنسان، ويخدم هذه الحياة يقول في هذا الصدد، ولما كان القرآن كتاب الإنسان في جميع نواحي الإنسان وكتاب الأكوان بما فيه من نعم وعبر وكتاب العمران بما يحتاج إليه العمران مما يصلح أحوال البشر وما يتصل بالبشر، وكتاب السعادتين الدنيوية والأخروية كانت العلوم التي تخدم ذلك كله من علوم الإسلام[5]، وهذا يعني أن العلوم التي تنفع الناس وتفيدهم في حياتهم، ولا تتعارض مع روح العقيدة الإسلامية ينبغي أن تكون ضمن مناهج التعليم في المجتمع الإسلامي.

حب العلم هو السمة المميزة لمجتمعنا

من طبيعة المجتمع المسلم أنه يقدس العلم ويمجد العلماء ويجعل من البحث عن وسائل العلم واكتساب المعرفة قيمة من القيم التي ينشئ أفراده عليها، ويناضل من أجل ترسيخها في نفوسهم وفي واقع حياتهم، ومجتمعنا في الجزائر لا يخرج عن هذه الطبيعة بل هي صفة من صفاته التي اكتسبها منذ القديم، منذ ارتباطه بالإسلام الذي يدعو إلى المعرفة ويحث على طلب العلم، لأنه وسيلة الحياة الفاضلة.

لقد عايش مجتمعنا الإسلام وتشرب قيمه ومبادئه منذ أن أنعم الله على هذه

المنطقة التي نعيش فيها بنعمة الإسلام، ووفق سكانها لاعتناق مبادئه والعيش في كنفها، لقد دفعهم إيمانهم بالإسلام منذ البداية (أي منذ أن عرفوا حقيقة الإسلام) إلى التعلق بالقيم التي يدعو إليها وبالمبادئ التي تضمنها دستوره الخالد (القرآن) الذي كان أساس الدعوة التي حملتها إليهم قوافل العلماء والدعاة الذين وفدوا إلى هذه المنطقة ضمن سرايا الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا والأندلس في القرن الأول للهجرة، أولئك الذين شرحوا للسكان حقائق الإسلام وأهداف دعوته، وجسموا بسلوكهم ومواقفهم هذه الحقائق فأنغرست في نفوس الناس الذين آمنوا بها وفهموها، وأدركوا قيمتها، كما دفعتهم عقيدتهم إلى حب العلم واكتساب المعرفة التي هي وسيلتهم في فهم القرآن والتعامل مع أحكامه والغوص في مجالات العلم الذي يدعو إليه القرآن.

إن الرغبة في التعلم الناشئة عن حب العلم، وتقدير قيمة المعرفة هي السمة المميزة لشعبنا، فلم يتخل عنها حتى في أحلك الظروف التي عاشها في عهد الاستعمار، فلم يكن يرضى بحياة الجهل حتى وإن فرضت عليه، لذلك يعتبر السعي إلى طلب العلم عبادة من العبادات التي يتقرب بها إلى الله وواجبا من الواجبات المفروضة على كل مسلم.

فلقد أولى الإسلام أهمية كبرى للعلم، وفرض تعلمه وتعليمه على الناس بهدف تنمية المجتمع وتوجيهه نحو الغاية التي خلق الإنسان من أجلها، فالإسلام إنما جاء لإصلاح نظام البشر، وترقية حياة الإنسان أي إنسان وهداية الناس، لذلك أقام الحياة على دعامتين أساسيتين: الإيمان والعلم، بالإيمان تتحقق إنسانية الإنسان وتصفو نفسه وتتهذب مشاعره، وبالعلم ينال الإنسان مرتبة تفوق مرتبة الملائكة، إذ بالعلم فضل البشر على الملائكة فاستحقوا خلافة الله في أرضه[6] وصنف العلماء في مرتبة جعلتهم ورثة الأنبياء، فاصبحوا من أولي الأمر.

إن تحقيق النهضة العلمية التي هي غاية ما يطمح إليه مجتمعنا من وراء الجهود التي يبذلها في المجال التعليمي موقوف على نوع الجهود المبذولة في هذا الصدد، وعلى طبيعة المعرفة التي يخطط لنشرها، وعلى مستوى القائمين على التعليم تنظيرا وتنفيذا وعلى نوع المحيط الذي تنفذ فيه السياسة التعليمية والعلمية لذلك يصبح الحديث عن العلم حديثا عن الحياة في أرقى صورها، فالعلم الذي يجب أن تتضمنه مناهج التعليم، ويمكن المتعلمون من استيعابه

وتخصص له الموارد المالية المجزئة هو الذي يشمل كل أشكال المعارف التي تعالج قضايا الحياة التي يحياها الإنسان في واقعه المتغير.

والطريق إلى كسب العلم هو التعلم (إنما العلم بالتعلم) وأساس التعلم هو التمكن من إتقان وظائف القراءة الواعية واستخدام العقل وتوظيف الحواس التي هي نوافذ المعرفة، فالأمر بالقراءة في أول آيات الوحي هو المفتاح الذي وجهنا إليه القرآن ووضعته التوجيهات النبوية بين أيدينا لنفتح به أبواب المعرفة ونيسر به عمليات الاتصال مع ما ينتجه الفكر، ولنتخذه الأداة الضرورية لتحصيل العلم، وللتفكر في ملكوت السموات والأرض، فالإشادة بالعلم في سورة العلق وفي مواطن أخرى من كتاب الله العزيز تعني أن القرآن يعتبر العلم عنصرا من عناصر تكوين الإنسان، وسرا من أسرار تكريمه[7]

وإذا كانت القراءة مفتاح العلم ووسيلة التعلم فهذا يفرض على النظام التعليمي أن يبني استراتيجية للتعلم والتعليم تراعي فيها تكنولوجيات الاتصال التي أعطت للقراءة أبعادا جديدة ومفاهيم حضارية متنوعة فانضافت بذلك الوسيلة الالكترونية إلى الدرس وإلى المعلم والكتاب وانضافت برمجيات الحاسوب إلى الطريقة والوسيلة والكراسة والمناهج.

الهدف من احتفائنا بيوم العلم

الهدف الذي نرمي إليه من وراء احتفائنا بالعلم هو:

1- أن نبين للأجيال وللأمة أن النهضة التي نتطلع إليها في الجوانب المادية والفكرية والرقي الذي ننشده في مختلف المجالات مرهونان بالتحكم في العلوم كل العلوم. النظرية والتطبيقية الموروثة والحديثة، أي ما يفيد الحضارة المادية والتكنولوجية، وما يرتقي بالجوانب الفكرية والروحية.

2- أن نشعر أنفسنا بأن ما نبذله من جهد في مجال نشر المعرفة وترقية الاهتمام بالعلم ليس في المستوى المطلوب، ومن ثم يجب أن يتجه اهتمامنا الجدي لمعالجة أسباب القصور في الخطة التي ننتهجها، ونتدارك تخلفنا في المجال العلمي، ونراجع مناهجنا التربوية لنحدث تغييرا جذريا في طرائق تعليمنا، بما يجعل تعليمنا منتجا يصنع العلماء، ويربي الأجيال على توظيف المعرفة توظيفا عمليا وعلميا ويكسبهم القدرة على تحويل

الأفكار إلى إنتاج ملموس يفيد الأمة في حاضرها ويمهد لصنع مستقبلها.

3- أن نستعرض التطور الحاصل في ميدان العلم، ونبين ما وصلت إليه الأمم في مجال التقدم العلمي والتكنولوجي، ومن خلال ذلك نستنهض هممنا لنستطيع مسايرة الركب، ولنتحرك وفق الاتجاه الذي يبقينا منسجمين مع خصوصياتنا ومتفتحين على ما يجري في عصرنا.

4- أن نذكر الأجيال بالمستوى الذي كان عليه علماؤنا إبان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وبالإسهامات التي قدموها للحضارة الإنسانية بفضل امتلاكهم ناصية المعرفة العلمية والفهم الصحيح للدين في علاقته بالحياة، وبالأخلاق التي كانت الدليل الموجه لجهودهم وسلوكهم.

5- أن نشعر المسؤولين أن البحث في الميدان العلمي الذي هو المنطلق الذي اعتمدته الحضارة المعاصرة، وحققت به مانراه من تقدم وتطور، إن البحث في هذا الميدان يجب أن يستولي على كل اهتماماتنا لأننا به نستطيع امتلاك ناصية المعرفة الحقة واحتلال مكانة علمية مرموقة بين الأمم.

6- أن نعنى بالنجباء من أبنائنا الذين يظهرون تفوقا ملحوظا في مجال التفكير والتحصيل العلمي، وأن نوفر لهم الظروف المحفزة والوسائل الملائمة التي تصنع منهم علماء وباحثين يستطيعون أن ينتجوا المعرفة، ويطوروا أساليب التفكير، وينافسوا غيرهم دون أن يخونهم وعيهم بذاتيتهم.

7- أن يكون العلم والبحث العلمي أساس مشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

اهتمام الجزائريين بالعلم

حينما نستعرض تاريخ الجزائر الثقافي نجد الاهتمام بالعلم والعلماء وبالتعلم أمرا بارزا في كل مراحل تاريخنا، نجد الرغبة في تحصيل العلم واكتساب ألوان المعرفة ماثلة في سلوك معظم الناس لأنهم يرون الأمية أو الجهل منقصة لا تليق بالإنسان المسلم.

لذلك تراهم يعظمون العلماء والمعلمين و كل العاملين في حقل المعرفة ونجد الكثيرين منهم يحلمون بأن يكون لهم أطفال يتعلمون في المدارس

والكتاتيب، بل يتطلعون إلى أن يبلغوا في تعلمهم المستوى الجامعي.

ومن التقاليد التي تدل على الاهتمام بالعلم احتفاؤهم بالمتعلمين الذين يختمون القرآن الكريم أو يحصلون على الشهادات.

فكلما نبغ عالم أو مفكر أو أديب في قرية من القرى أو في مدينة من المدن احتفل به أهله والتف حوله محبوه وأقرباؤه واتخذوه قدوتهم وإمامهم في الرأي والمشورة واعتبروه نموذجا لتربية أبنائهم، ولعل هذا هو الذي كان يحرك في نفوس الجزائريين الرغبة في الهجرة داخل البلد وخارجه طلبا للعلم واستكمالا للثقافة عندما كانت أبواب العلم موصدة في وجوههم، لأن طلب العلم هو نوع من العبادة التي يتقرب بها إلى الله، وأسلوب من الأساليب التي يحصل بها الفرد على المكانة الاجتماعية في وطنه.

وتأكيدا لهذا التوجه حرص ابن باديس في مشروعه التربوي والإصلاحي على تعزيز الاهتمام بالعلم وتبيان الأثر القوي الذي ينجم عن الرعاية العلمية فقال : إن الأمم لا تنهض إلا على صوت علمائها فهو الذي يزيل عن الأبصار غشاوتها، ويبعث الهمم من مرقدها، ويدفع الأمم إلى التقدم في جميع نواحي الحياة.[8]

الإسلام ينظر إلى العلم في علاقته مع الحياة، وفي ارتباطه بالإنسان فالإنسان وفق هذه النظرة هو الواسطة بين العلم والحياة.إذ هو الذي يستنبط الحقائق العلمية ويوظفها لفائدته الشخصية، ولفائدة الحياة الإنسانية في مظاهرها المختلفة وفق ما يدعو إليه الإسلام، وتنتظره البشرية.

فالعلم أداة التغيير والإنسان صانع التغيير بفضل هذه الآداة، وإحسان استعمال القدرات العقلية والحسية هو الذي ينتج العلم ويمكن من توظيفه معرفة ومنهجا ﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا**﴾ [الإسراء 36]، والحياة بجوانبها المختلفة هي الموضوع الذي ينصب عليه عمل الأداة (التي هي العلم).

فإذا كان العلم هو جملة المعارف التي يصل إليها الإنسان عن طريق التدبر واستخدام العقل وتوظيف الحواس فهو

أيضا طريقة التفكير ومنهج البحث الذي يعتمده الإنسان في التفاعل مع ما يحيط به من أشياء، وظواهر وحقائق، وفي البرهنة على صحة ما يستخلصه من حقائق.

لذلك يحث العلماء المسلمون على الجمع بين الاهتمام بالأداة (العلم) والاهتمام بالموضوع(الحياة) وعلى المزاوجة بين العلوم الموروثة والعلوم الحديثة، أي بين العلوم التي تعتمد النقل والعلوم التي تعتمد العقل والمشاهدة، فالقرآن الكريم يحث المسلمين على التفاعل الإيجابي مع هذه العلوم كلها حين يدعوهم إلى التدبر والتفكر في ملكوت السموات والأرض، وفيما خلق الله، وإلى البحث والتقصي لمعرفة حقائق الكون والطبيعة والإنسان، وكل ما يحيط بالإنسان، لتحقيق حكمة الله من استخلافه في الأرض[9] فالعلوم المستنبطة بواسطة النظر والتفكير هي السبيل الذي يطور حياة الإنسان، ويرقي المجتمع، ويزيد المسلم إيمانا ويقينا بحقائق الإسلام.

وهكذا يتجلى نوع المعرفة التي يدعو إليها المنهج الإسلامي: إنها المعرفة الشاملة التي تتجاوز المعرفة الخاصة بأمور الدين واللغة والتاريخ إلى علوم الأكوان والعمران كما يسميها ابن باديس (معرفة تجمع بين ما ندركه عن طريق الأدلة النقلية وما ندركه عن طريق الأدلة العقلية والحسية، أي المعرفة التي ترتقي إلى مستوى العلم) والعلم في منظور ابن باديس هو الإدراك الجازم المطابق للواقع عن بينة سواء أكانت البينة حسا ومشاهدة أو برهانا عقليا[10]

وهو يؤكد أهمية التفكير في مجال استخلاص المعرفة والبرهنة على صحتها، فالفكر عنده هو المحك الذي نقيس به الأمور ونميز بين ما هو ثابت بالبرهان والبينة، وما هو غير ثابت، أي ما يدخل في دائرة العلم وما يدخل في دائرة الظنون والأوهام[11]، ويستخلص من هذا أنه لا يجوز أن نفعل أو نقول أو نعتقد إلا ما نعلم أنه حق[12]، أي يجب أن يكون العلم أساس ممارستنا الدينية والدنيوية، لأن اتباع أمر من أمور الدين أو الدنيا بغير علم منهي عنه في الإسلام مصداقا لقوله تعالى: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾** [الإسراء: 36] ، ففي هذه الآية أصول النظر العلمي : المشاهدة الصحيحة والتفكير الصحيح، عن طريقهما يهتدي الإنسان إلى الحق والحقيقة.

ويرى الزمخشري في كشافه: أن المراد من هذه الآية النهي عن أن يقول

الرجل (الإنسان) ما لا يعلم وأن يعمل بما لا يعلم، ويدخل فيه النهي عن التقليد دخولا ظاهرا لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده) الكشاف ج 2 ص 666.

العلم التطبيقي أساس التنافس الحضاري اليوم

إن التطور العلمي الذي نعيش وقائعه في مختلف الميادين منشؤه العلوم التطبيقية (الممارسات التكنولوجية) لأن العلوم الأساسية وإن كانت هي المدخل الضروري للعلوم التطبيقية، تبقى مجرد متعة فكرية وتراكم معرفي لا تحقق التطور العلمي الذي تنشده الأمة، وعلى هذا الأساس ظل ابن باديس وغيره من علماء المسلمين يدعون العلماء والمربين إلى اتخاذ منهج علمي في مجال تربية الأجيال وإيقاظ وعيها ونشر العلم الصحيح (الذي ينهض بواقع المسلمين ويدفعهم إلى تدارك التأخر) وهو العلم التطبيقي الذي أصبح أساس التنافس الحضاري اليوم، بحيث يتجهون في دروسهم وكتاباتهم إلى تحديد الأساليب التي تحقق الربط بين التعليم والحياة والتكامل الوظيفي بين العلم والعمل والاعتقاد والسلوك، كما دعاهم إلى الاهتمام بالجانب الدنيوي الذي أهملوه في العهود المتأخرة، وحثهم بصفة خاصة على الأخذ بأسباب التطور التي مكنت أوربا من التقدم الذي أحرزته.

وبين للمسلمين من خلال تفسيره للآية الكريمة، ﴿**وكلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورا**﴾ [الإسراء: 20] أنهم إذا عادوا إلى التمسك بما يدعوهم إليه دينهم من الأخذ بأسباب الحياة والعمران والتقدم أمكنهم الخروج من دائرة التخلف التي أوقعهم فيها كسلهم العقلي وابتعادهم عن الأصول الإسلامية وزهدهم في العلوم التطبيقية التي تستطيع أن تعيد لهم المجد الحضاري الذي كان لهم والقوة التي بها صنعوا الحضارة في القرون الأولى[13]

إن الأخذ بأسباب التقدم يعني العناية الكاملة بالعلوم مادة ومنهجا بصفة عامة، والعلوم التطبيقية بصفة خاصة فالتركيز على الدراسات ذات الطابع العلمي والعملي وتربية الإنسان من خلال ذلك على قيم العلم والعمل في ترابطهما الوظيفي ينسجم تماما مع مواريثنا الثقافية والحضارية، ومع قيمنا الإسلامية التي تمقت الكسل والتواكل.

وتستحث العقل على التدبر والتفكير،

وتدعو إلى العمل وتعلي من شأن العلم النافع، والتطبيق التكنولوجي للمعرفة العلمية فالعلم الذي يرقى في الإسلام إلى مستوى العبادة هو العلم التطبيقي أي العلم النافع الذي ينفع العباد، ويرفع من شأن البلاد.[14]

وفي القرآن الكريم أكثر من آية يستفاد منها الحث على العمل، واستثمار مصادر البيئة وموارد الطبيعة وتنميتها. يقول سبحانه وتعالى ﴿**ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش**﴾ [الأعراف : 15] ويقول في سورة الحديد: ﴿**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس**﴾ [الحديد: 25] ويقول في سورة يس ﴿**وآية لهم الأرض الميتة أحييناها و أخرجنا منها حبا فمنه يأكلون**﴾إلى قوله: ﴿ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون﴾: [يس: 33-34-16.35]

ونستنتج من هذه الآيات أن التنبيهات التي يوجهنا إليها القرآن ترتبط أساسا بالعمل، وإلا كيف يحقق الإنسان من الأرض معاشه، ويأكل مما عملته يداه؟، وما قيمة التمكين في الأرض إذا كان الإنسان لا يستثمره؟ وما قيمة المعادن والثروات الطبيعية إذا لم تجد إنسانا مكونا علميا قادرا على تسخيرها لإرضاء حاجاته وزيادة رفاهية؟[15]

كيف نستفيد من الحديد ومن منافعه إذا لم نهتم بالعمل المنتج الذي نوظف فيه المعرفة العلمية، ولم ندرب الإنسان على ذلك؟، ومن المعلوم أن العمل لا يكون ذا فائدة إذا لم يؤسس على العلم، فالعلم مقدم على العمل كما يقول ابن باديس، لذلك كان العلم في الحضارة الإسلامية علما تطبيقيا.

فمعظم العلماء الذين ازدهر بهم تاريخ الحضارة العربية الإسلامية كانوا علماء عاملين يجمعون بين المعرفة العلمية وتطبيقاتها في الحياة (بين الفكر النظري والتطبيق العلمي). لذلك انتفعت البشرية بعلمهم وتطورت الحضارة بإنتاجهم.

قيمة العلم في ارتباطه بالعمل والأخلاق

إن ما يسعى إليه التعليم الجيد هو أن يتبنى صيغة تعليمية مفتوحة على البيئة وعلى سوق العمل بحيث تراعي مقتضيات اكتساب العلم وشروط التدريب على توظيفه في الميدان الحياتي.

وهذا يستوجب التأكيد على الربط العضوي بين العلم بصفته إدراكا واستنباطا للحقائق وبين حاجات التنمية التي تتطلب توظيف هذه الحقائق في المجال التكنولوجي. وقد أوضح هذا الاتجاه الدكتور عبد الله عبد الدايم في دراسة له: نماذج عالمية في ربط التعليم الأساسي بالتعليم الثانوي) فبين أن الحاجة إلى نظام تعليمي مفتوح ومرن مرتبط بالعمل والإنتاج قادر على أن يخرج لنا أناسا تستوعبهم سوق العمل ومطالبها الجديدة – مطلب غدا ذائعا على كل لسان في الوطن العربي – ويعني هذا أن قيمة العلم في ارتباطه بالعمل. ويؤكد الشيخ الغزالي في كتابه جدد حياتك صفحة(59) هذا المعنى فيقول: (إن المعلومات النظرية التي لم ينقلها العمل من دائرة الذهن إلى واقع الحياة تشبه الطعام الذي لم يحوله الهضم الكامل إلى حركة وحرارة وشعور).

ويضيف ابن باديس إلى قيمة العمل القيمة الخلقية فيبين أن العلم والخلق متكاملان في المنظور الإسلامي، ويستخلص ذلك من القرآن فيقول: **إن العلم الصحيح والخلق المتين هما الأصلان اللذان يبنى عليهما كمال الإنسان** مجالس التذكير للشيخ عبد الحميد بن باديس ص 136.

إن أهم ما ينبغي أن نؤكده ونحن نتحدث عن العلم والعلماء، في بلادنا هو التكامل بين العلم والعمل والأخلاق وبين المعرفة والنشاط التكنولوجي والسلوك الأخلاقي الموجه لهذا النشاط باعتبارها عناصر أساسية في تكوين الشخصية المتوازنة والمجتمع الراقي، مما يحتم على النظام التعليمي أن يطور مناهجه لتحقيق التكامل بين هذه العناصر لأن تهميش أي عنصر منها في العملية التربوية بعد أمرا منافيا للتوجه التربوي الصحيح، فالعلم يمدنا بالمعرفة وبمناهج التفكير التي تعيننا على تفسير الظواهر وتحليل الوقائع، والعمل والنشاط التكنولوجي الذي يقوم أساسا على تطبيق الحقائق العلمية في الممارسة الإنتاجية وفي صناعة الأشياء يمدنا بالقدرة على تحويل الأفكار والمواد إلى أشياء مفيدة، ويرشدنا إلى الوسائل والطرائق المستخدمة في الإنتاج والصناعة.

أما الأخلاق فهي التي توجه وظيفة العلم والتكنولوجيا وتضفي عليها خصوصيات المجتمع، وهي التي تهدي سلوك العلماء وتجعل أعمالهم في خدمة المجتمع ولفائدة الإنسانية.

والأخلاق من جهة أخرى هي التي ترشد قرارات الإنسان وتوجه نشاطه نحو الممارسات المفيدة والمتقنة،

والتربية الأصيلة هي التي تسعى إلى تكوين إنسان عالم قادر على توظيف علمه فيما ينفع الناس متخلق بأخلاق مجتمعه[16]

الهوامش والمراجع

1- أمثال عبد القادر المجاوي ومصطفى بن الخوجة وابن العنابي وغيرهم من علماء الجزائر الذين عاشوا في النصف الأول من القرن العشرين.

2- أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والكواكبي وشكيب أرسلان وغيرهم.

3- إمام الجزائر عبد الحميد ابن باديس : عبد القادر فضيل بالاشتراك ص : 68 وكذلك: حركة بن باديس التربوية وأهدافها الإصلاحية (علي علواش) رسالة غير مطبوعة ص 251.

4- المرجع السابق إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ص : 163

5- المرجع نفسه ص : 163

6- الفكر التربوي العربي الإسلامي (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالاشتراك ص: 286 وما بعدها.

7- المرجع السابق 268 وما بعدها.

8- مجلة الشهاب (عبد الحميد بن باديس) ج 8 المجلد 13 ص 359 شعبان 1356هـ، وكذلك إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس المرجع السابق ص 162.

9- إمام الجزائر المرجع السابق ص : 184

10- المرجع نفسه ص : 185-186

11- المرجع نفسه ص 168

12- مجالس التذكير من كلام العليم الخبير عبد الحميد بن باديس ص 139

13- 14 - تجارب الدول العربية واتجاهاتها في إدخال العمل اليدوي والتربية التكنولوجية في التعليم الأساسي، عبد القادر فضيل ص 37-38

15-16-17- المرجع نفسه ص 38 وما بعدها.